المحاضرة الثالثة

٢-المفضليات

من مصادر الشعر الجاهلي المهمة هو كتاب المفضليات، الذي قد يكون السبب المباشر لاختيار هذه القصائد هو التكليف الرسمي الذي جاء على لسان الخليفة العباسي المنصور حين طلب من المفضل الضبي أن يكون مؤدبا لابنه، وقد تختفي وراء ذلك رغبة حقيقية كانت تعتمل في نفس الراوية الكبير وهو يصفي الشعر مما علق به، وينقي سيوله وهي تمر عبر أفواه الرواة وقوافل الأعراب ومواكب الحريصين على تدوين اللغة وقد تكون العوامل غير هذين السببين ولكن الواقع الحقيقي الذي يحدد طبيعة مثل هذه الأعمال كان دائما هو السبب الذي يختفي وراء هذه الأعمال لأن العصر كان يأخذ بعده العلمي.

فالمفضل الضبي المتوفى سنة(١٥٨هـ) قد أخذ على عاتقه مهمة الاختيار هذه ولكنها لم تكن منظمة كما يبدو وإنما كانت تأتي على وفق ما يقع عليه ذوقه وعلى وفق ما يتبادر إلى ذهنه من نصوص ولعله كان يجد فيها استشهادا مقبولا أو نصا معبرا أو قصيدة شعرية تأخذ مكانتها في نفسه أو نفوس معاصريه ولكنه كان يسعى وكما طلب إليه أن تكون النماذج الشعرية لها طابع التأديب الذي يحمل النفس على الاتصاف بالخلق الرفيع والتمثل بالشجاعة الكريمة والتحلي بالمثل العربية الأصيلة إلى جانب كونها من أجود ما قاله الشعراء ومن الطبيعي أن تلمع بعض هذه الصفات في بعض الاختيارات ولكنها لم تكن واضحة المعالم في بعضها الآخر .

ومن المرجح أن المفضل أو من أضاف إلى المفضليات من طلابه أو أتباعه أو الذين وقعت في أيديهم بعض القصائد كان يحاول أن يختار للشاعر أكثر من قطعة شعرية في بعض الأحيان التزاما بمنهج معين أو إعجابا بالشاعر أو لاعتبارات ذوقية أو غير ذوقية أو لأسباب تختلف أصلا مع كل المقاييس التي يمكن أن تكون أساسا في مثل هذه الاختيارات، فالمرقش الأكبر يستغرق اثني عشرة قطعة من المفضليات والمرقش الأصغر خمس قطع وربيعة بن مقروم أربعا ولكل من الحارث بن حلزة وذي الإصبع العدواني وعبد المسيح بن عسلة والمثقب العبدي والممزق ثلاث قطع وهي اعتبارات تستوقف القارئ ودفعه إلى البحث وراء الدوافع التي جعلت هؤلاء الشعراء يأخذون هذا المكان الواسع في اختيارات المفضل في الوقت الذي شغل فيه غيرهم قطعة واحدة على الرغم من شهرته

واتساع مدى معرفته وكثرة الاستشهاد بشعره مثل تأبط شرا وأبي ذؤيب الهذلي وسلامة بن جندل والشنفرى وغيرهم.

إن محاولة الاختيار التي تمت أو التسلسل الذي التزم به وهو يؤدي مهمة التأديب أو التأليف تضع الأساس الأول الذي أخذ به هذا الراوية الموثوق به وهو يرسم لديوان الشعر العربي ملامحه الأولى ويحدد لرواة الشعر ونقلة دواوينه الشكل الذي أصبح لونا مألوفا من ألوان التأليف في عصره أو قبل عصره.

وحصل اختلاف عند العلماء في عدد القصائد المفضليات ، فهي سبعون كما اختارها إبراهيم بن عبدالله وهي ثمانون كما تقول الروايات حين تقدم بها للمهدي وأن هذه الثمانين هي أصل الكتاب من المفضل ولم يتجاوزها، ثم قرئت على الأصمعي فأقرها وزادها قصائد وزاد في بعض قصائدها أبياتا واختار قصائد أخر وهي مائة ومائة وثمان وعشرون ومائة وست وعشرون ومائة وثلاثون كما وصلت إلينا بعد أن ألحقت بها أربع قصائد وجدت في بعض النسخ ولا بد أن تكون هذه الزيادات والاختلافات من صنع الرواة الذين أعقبوا المفضل أو تلامذته الذين كانوا يحرصون على أن يأخذوا من كل شاعر خيار شعره ليضموه إلى المجموع .

إن هذا الاختلال الذي أصاب المفضليات والاختلاف الذي تعرض إليه عددها لم يمنع الرواة القدامى من توثيقها لأن الأصول التي قامت عليه هي أصول المفضل وأن الاختيار الأول كان له وأن السياج الدقيق الذي أحيطت به من التوثيق والتثبت يضفي عليه صفة علمية كبيرة ويضعها إلى جانب النصوص الموثقة التي لا يرقى إليها شك ، والمفضليات بشكلها الذي وصلت إلينا فيه تحمل المنهج الذي اتبع في تأليفها أو تدريسها أو استخدامها في طريق التأديب فهي قصائد مختارة لشعراء جاهليين ومخضرمين وإسلاميين وقد عرف هؤلاء الشعراء بأنهم من المقلين المجيدين وأن الحصة الكبيرة من الاختيار كانت لشعراء الجاهلية ويليهم في الاختيار الشعراء المخضرمون ثم الإسلاميون وهم في وضعهم لم يخضعوا لتسلسل زمني أو ترتيب وفق غرض تجمع تحته مجموعة من الشعراء تخضع قصائدهم لغرض شعري معين أو فئة من الشعراء لهم سمة متميزة .

٣-**<u>الأصمعيات</u>**:

يبدو أن الأصمعي أراد أن يسير في طريق من سبقه، فاختار لنفسه أو لطلابه أو بإشارة من الرشيد الذي أوكل إليه تأديب ابنه الأمين عن طريق اختيار مجموعة قصائد كما فعل من قبله المفضل الضبي وجعلها تأخذ الإطار الذي أخذته قصائد المفضل من حيث التبويب والترتيب والانتقاء وإن كانت مختلفة في جوانب أخرى من المفضليات من حيث العدد وطول المقطعات وتحديد المختار لكل شاعر والأغراض وطبيعة أصحاب الاختيارات.

وكما حاولت بعض الروايات أن ترد السبب في اختيار المفضليات إلى التكليف الرسمي الذي جاء على لسان الخليفة العباسي المنصور، فإن الأصمعيات قصائد اختارها الأصمعي لهارون الرشيد.

وهذا يعني أن الأصمعي حاول وضع كتاب يجمع فيه ما يناسب ذوقه ويحقق رغبته ويرضي طموحه ويلبي حاجة عرفت في عصره وارتضى بها معاصروه ممن شغفوا باللغة العربية واهتموا بالرواية، ثم إنه جمع قصائد مختارة وحدتها ضوابط قد تكون غير واضحة بالنسبة لنا ولكنها تمثل المرحلة التي جمعت فيها هذه القصائد.

ويبدو أن الأصمعي حاول أن لا يكون نسخة ثانية من المفضل الضبي ولا نسخة مكررة لحماد الراوية الذي وقع اختياره على المعلقات، فقد حاول أن يخالف هذين الراويتين فاختار قصائده أو مقطوعاته وهي تنحصر في ثلاث وسبعين قصيدة ومقطوعة أضيفت إليها تسع عشرة قصيدة ومقطوعة من المفضليات فكانت اثنتين وتسعين وهي لشعراء جاهليين ومخضرمين وإسلاميين أغلبهم المغمورين المقلين الذين لم تعرف لأكثرهم دواوين، وأكثر من ثلاثين مقطوعة لا تتجاوز العشرة أبيات وهذا يعني أن نصفها تقريبا مقطوعات صغيرة.

ولعل هذه الظواهر قد حملت الرواة على الانصراف عنها لأنهم لم يجدوا فيها مجالا لإظهار براعتهم اللغوية وقدراتهم التي برزت بشكل واضح في شروح القصائد الطوال وشروح المفضليات .

إن مراجعة مقطعات الأصمعيات تظهر مجموعة من الملاحظات لا بد أن تكون موضع اهتمام الباحثين ومجالا لإعادة دراستها وتقويمها فهي على الرغم من الأهمية التاريخية والتوثيقية التي تحتلها وسلامة الطريق الذي وصلت به إلينا وعلى الرغم من القيمة الأدبية

التي تمثلها هذه المجموعة إلا أنها في واقعها لا تمثل إلا مجموعة مقطعات متباعدة من حيث الأغراض اختلطت فيها الأراجيز القصيرة والأبيات المفردة وأن شعراءها متباعدون من حيث الزمن وأن كثيرا من هذه المقطوعات لم تأخذ نسقا واحدا من حيث التأليف فبعضها يروى مباشرة مثل : قال سحيم بن وثيل وبعضها: أنشدنا أبو سعيد لفلان وبعضها: وأنشدني وبعضها: قال أبو سعيد قرأتها على أبي عمرو بن العلاء، وهي إشارات تؤكد على أن الأصمعي يروي هذه المقطعات في سياق حديث أو مجال درس أو تأكيد شاهد، وهذا ما جعلها بعيدة عن الصورة التي وجدناها واضحة عند المفضل الضبي لأن المفضل كان واضحا في منهجه متمكنا من اختياراته.

ومن هنا فإن كتاب المفضليات يعد الشكل المتكامل لتأليف الاختيارات وأن المفضل كان يحاول أن يوحد نصوصه لتأتي وهي تحمل خصائص التناسق أما اختيارات الأصمعي فهي محاولة تقليدية غير متكاملة لافتقارها إلى كثير من العناصر التي تؤهلها إلى مكانة الاختيارات ولعل هذا التباين والاختلاف هو الذي أعطى المفضليات مكانتها المرموقة عند الشراح واللغويين والدارسين وعزفوا عن الأصمعيات للأسباب التي وقفنا عندها.

<u>٤-كتاب الاختيارين:</u>

من مصادر الشعر الجاهلي المهمة كتاب الاختيارين فهو يشابه كثيرا من حيث التأليف والتبويب والأسلوب كتابي المفضليات والأصمعيات، وكتاب الاختيارين ينسب للأخفش الأصغر المتوفى سنة(٣١٥هـ) فقد حاول المؤلف أن يجمع بعض قصائد المفضليات والأصمعيات في كتاب واحد يعلق عليها شرحا ويفسر بعض غريبها ويوضح المعاني البعيدة ، وقد شاع ذكر الكتاب وأعجب به المهتمون بالشعر وأفاضوا في الحديث عنه ووضعوه في المنزلة التي يستحقها لأن الكتاب يعد استمرارا للكتابين الكبيرين، وتأكيدا لرأي العصر في تأييد هذا الشكل من التأليف والإقبال ويمثل خبرة عالمين كبيرين من علماء الشعر وثقاته وممن أجمع الرواة والمهتمون باللغة على أن هذا الاختيار يمثل الصورة الصحيحة والمتقدمة من حيث التوثيق.

وقد ظل هذا الكتاب بعد هذه الفترة بعيدا عن أنظار الرواة إلى أن ذكره ابن خير الأشبيلي في فهرسته مسندا إلى مؤلفه الأخفش الأصغر ثم اختفت معالمه وضاعت آثاره حتى عام ١٣٢٥هـ حيث نشر المستشرق كرنكو قصيدة طفيل الغنوي البائية:

بالعقر دار من خميلة هيجت سوالف حب في فؤادك منصب

التي تعد من أجود شعره نقلا عن نسخة الاختيارين، وفي عام١٣٣٢هـ اقتنى المكتب الهندي بلندن نسخة تضم الجزء الثاني فقط وقد اعتمدها الدكتور معظم حسين فاختار منها ما لم ينشر في المفضليات والأصمعيات وأصدره عام ١٣٧٥هـ تحت عنوان نخبة من كتاب الاختيارين ، ثم حقق الكتاب كاملا وأصدره فخر الدين قباوة عام ١٩٧٤م، ضمن منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق ويضم ست عشرة ومائة قصيدة منها ثلاث وعشرون قصيدة هي في المفضليات وأربع عشرة قصيدة هي في بقية الأصمعيات ومنها سبع في زيادة الكتابين الملحقة ببقية الأصمعيات ومنها أربع عشرة هي في نسخة المفضليات بالمتحف البريطاني وثمان وخمسون قصيدة ليست في الكتابين.

والطريقة التي اتبعت في الكتاب تشابه طريقة الكتابين اللذين اختير منهما بعض مجموعته فهو مصنف على غير نسق واضح حتى تداخلت اختيارات المفضل باختيارات الأصمعي ولم يكن فيه أسانيد فترد القصيدة تقد اسندت إلى راويها أو مختارها وقد أدى ذلك إلى غياب معالم الوضوح وضياع أقسام الصورة التي أحاطت بظروف التأليف ، ولم نجد في الكتاب إلا إشارات باهتة أو ظلالا خفيفة لا تكشف عن الطبيعة التي كانت تحدد القصائد إلى جانب الغموض الذي يلف بعض القصائد التي وقعت في دائرة اختيار المفضل والأصمعي ولم ينفرد بها أحد، إن هذه العوامل تحيل دون تمييز قصائد كل من الاختيارين على حدة وتجعل الدارسين يقعون في حدود الحدس والتخمين من أجل وضعها في الموضع الصحيح.

والكتاب إضافة جديدة إلى ديوان الشعر العربي بما حفل به من قصائد جديدة واختيارات موثقة وإن إخراجه وتحقيقه قد أفاد الدارسين ووضع في أيديهم مادة أدبية لا يمكن الاستغناء عنها في كل مجال.